المصدر: روزاليوسف
التاريخ: ١٩٩٢/٣/١٦

جاسوس في بيت السادات!

أيام السادات الأخيرة

في التوراة .. وبالتحديد في سفر « الخروج » .. ان اليهود عندما خرجوا من مصر إلى سيناء .. حيث صحراء التيه .. « كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق ، وليلا في عمود نار ليضيء لهم » .. ولكي لا يتوقفوا عن المشي في الليل او في النهار . فإن عمودي السحاب والنار لم يختفيا من أمامهم إلا بعد ان حلت عليهم لعنة « الديلسبور » .. او الشتات .

وقد خرج من مصر ٦٠٠ الف يهودي .. واطفالهم ، ومواشيهم .. بعد أن اقترضوا من المصريين امتعة ، وفضة وذهبا ، وثيابا .. ثم اخذوها .. وتركوا البلاد .. اي بعد ان « سلبوا المصريين » على حد تعبير التوراة

ولكن .. ما ان وصلوا إلى وادى « الراحة » حتى تمردوا على موسى (عليه السلام) وصاحوا « ليتنا متنا فى ارض مصر .. لماذا اتى بنا الرب إلى هذه الارض .. اليس خيراً لنا ان نرجع إلى مصر ؟ » .. وتركهم موسى وصعد إلى الجبل ليكلم ربه .. وهناك نزلت عليه الوصايا العشر .. وعندما هبط موسى إلى شعبه « كانوا قد كفروا .. وعبدوا « العجل » الذهبى .. فحكم الله عليهم بالتشرد .. بان يكونوا مثل حبات الرمل « لا تصبح ناعمة إلا إذا داستها الاقدام

فى هذه البقعة اختار السادات مكانا اقام عليه اخر استراحاته .. استراحة « وادى الراحة » .. والوادى فسيح جدا .. منبسط .. يبدو وكانه حصيرة مضفرة من خيوط الرمال .. وهو محاصر بعدة جبال .. جبل موسى (٢٢٨٥ متراً) وجبل المناجاة (١٨٥٤ متراً) وجبل الصفصافة (٢٠٥١ متراً) .. ثم قمة جبل كاترين (٢٦٣٧ متراً) .. وفى الشتاء يغطى الجليد قمم الجبال .. وفى الصيف يتحول الجليد إلى ماء .. يستخدم فى رى مساحات محدودة من الاراضى القابلة للزراعة .. وتقدر مساحة وادى الراحة بمليون متر مربع .. وعلى بعد ١٠ كيلو مترات منه يوجد دير « سانت كاترين » .. وعلى بعد خطوات يرتفع مقام النبى « صالح » .. ومقام « هارون » شقيق موسى ولسانه الذى كان يعبر به !.

اما الاستراحة فمصنوعة من الاخشاب .. واشبه باستراحات مهندسى التعدين .. ولكن .. اكثر « فخامة » منها .. وقد اقيمت فى مكان مرتفع « يسمح للسادات بالتامل « ورؤية

الشمس وهي تولد من وراء قمة جبل موسى .. ويسمح المكان له بالتمشية وهو يحمل عصاه .. او بالتقاط الصور امام الجبل .. لقد كان السادات - الذى تصور نفسه آخر الفراعنة - قد اشتهر بالتقاط الصور وخلفه اهرامات الجيزة .. ولكن بعد ان تحررت هذه البقعة من سيناء ، تحولت خلفية الصورة من الاهرامات إلى الجبال المقدسة .. والمقصود انه تحول من فرعون إلى موسى .. وفى الحالتين كان يحمل عصاه .. فى الحالة الاولى كانت العصا فرعونية كالتى كان يحملها الفرعون - الإله .. وفى الحالة الثانية كانت العصا اشبه بعصا موسى .. التى كان نبى اليهود يتوكا عليها .. ويهش بها اغنامه .. وله فيها مارب اخرى .

وقد صام موسى ٣٠ ليلة فى جبل الطور .. ثم تلقى الوصايا العشر من ربه .. وطالت هذه الليالى وامتدت عشراً اخرى .. اما السادات فجاء إلى هذه البقعة ليصوم شهر رمضان .. ويتعبد ، يتمشى ، ويقرا القرآن ، وليكون على راحته .. حيث كان يرتدى الشورت القصير احيانا .. او الجلباب احيانا اخرى .. ولكنه فى كل الاحيان كان يستيقظ قبل الشمس ، ويصلى ، وينظر إلى السماء فى ترقب وخشوع .

وقد عرف السادات وادى الراحة ، او الوادى المقدس طوى ، بعد ان استعادت مصر منطقة « سانت كاترين » ، فى نوفمبر ١٩٧٩ ، بعد عامين من زيارته الشهيرة إلى القدس ، التى تعرف باسم « المبادرة » .. وفى هذا المكان احتفل السادات بالذكرى الثانية للمبادرة . ووجه منه كلمة إلى العالم ، اعلن فيها فتح باب التبرعات لإنشاء مجمع للاديان

الثلاثة فى هذا الوادى الفسيح .. وقد كان « مجمع الاديان » حديث اجهزة الإعلام المصرية والعالمية حتى اغتيال السادات .. فكان الرصاصات التى اغتالته ، اغتالت المشروع .

وحسب ما عرفته من مرافقى السادات .. فإنه كان كثيراً ما يفاجىء رهبان دير سانت كاترين بالزيارة .. وكان يناقشهم فى التوراة ، وقال لى الأب دميانوس مطران الدير (عندما زرته فى شتاء ١٩٧٩) إنه استمع من السادات إلى ما يعرفه عن كل ما تركه النبى موسى من اثار .. مثل بئر موسى الموجودة فى قلب الدير .. وشجرته .. وعندما قال له المطران :

ـ إن الارض التى اقيم عليها الدير (فى سنة ٢٥٢٧ كانت من املاك شعيب) والد عصفورة ، زوجة موسى !

رد السادات :

ـ هذا ليس مؤكداً .

ثم اضاف :

ـ ولكن المؤكد ان الله طلب من موسى ان يكلم الصخر لينفجر الماء ، إلا ان موسى خالف تعاليم الله ، وضرب الصخرة بعصاه مرتين .. فحكم الله عليه بالبقاء فى سيناء حتى بلغ من العمر ١٢٠ سنة .. ومات عند جبل « نبو » .

ولم يشأ المطران الدخول فى مزيد من الجدل الدينى ، التاريخى ، مع « الرئيس » ، واكتفى بفضيلة الاستماع فى صمت ، مع هز الراس احيانا . والدعاء بالبركة .

وعلى بعد نصف كيلو متر من الاستراحة ، يقع مطار « سانت كاترين » .. وهو مطار صغير جداً .. ملحق به فندق من طابق واحد و ١٦ شاليه و ٢٢ « موتيل » ، كانت إسرائيل

قد بنتها قبل ١٠ سنوات من انسحابها ، لاستثمار المنطقة « المقدسة » سياحياً .. وكانت تستقبل فيها ٧٥٠ الف سائح سنويا ، يدفعون حوالى ١٠٠ مليون دولار .. وقد استمرت السياحة فى هذه المنطقة ، ولكن بعد ان انكمشت بصورة واضحة .. اما فى الوقت الذى كان السادات ياتى فيه ، فكانت تنعدم تماما .. بسبب إجراءات الامن المكثفة ، والمشددة .. ولان اطقم العاملين فى خدمة السادات كانت تشغل كل الغرف السياحية المتاحة .

وقد قرات فى إحدى الصحف الإسرائيلية .. ان وجود السادات فى استراحة وادى الراحة ، كان فرصة لبعض حاخامات اليهود لزيارته هناك .. وكان الحوار المشترك بينهما يدور حول فكرة تقريب الاديان .. خاصة الإسلام واليهودية ، حتى يخرج العنصر الدينى من الصراع السياسى والعسكرى بين العرب والإسرائيليين .. وقرات ان السادات كان يحرص على ان يقدم إليهم الخبز والملح .

ويعتقد الإسرائيليون ان إطعام الغرباء خبزا وملحاً يقى شرهم .. وقد قدموا الخبز والملح للسادات ، فى زيارته لمدينة حيفا الساحلية .. فى سبتمبر ١٩٧٩ .. ولم تكن هذه الزيارة هى زيارته الاولى لإسرائيل .. وإنما الثالثة بعد القدس ، وبئر سبع .. ولكنها كانت الزيارة الاولى بعد توقيع معاهدة الصلح المعروفة باتفاقية كامب ديفيد .. وقد حدث ذلك ، فى ميدان « بلومير » القريب من ميناء « حيفا » .. حيث جاء السادات بالبحر على متن اليخت « الحرية » .. او « المحروسة » .. ومعه زوجته وصغرى بناته .. جيهان .. وقد تكدس الاف من

الإسرائيليين فى انتظاره رغم سخونة الشمس .. ولكنهم عوضوا ذلك بالمشروبات الغازية المثلجة ، والآيس كريم ، واغطية الراس المصنوعة من الورق .. وقد نزل السادات وهو يرتدى بدلة كحلية اللون .. غير بدلة البحرية التى سافر بها .. فقد رفض الإسرائيليون ان يهبط ارضهم وهو يرتدى زياً عسكرياً .. حتى ولو كان ابيض اللون .

وكانت اول طقوس الاستقبال ان يقدم حاخام حيفا للسادات قطعة من « العيش » وحبات من « الملح » .. وفى هذه اللحظة صرخ المتفرجون على هذه المسرحية الحية .. التى لم يكونوا يتصورونها ابداً .

وفى السنة نفسها طالب الإسرائيليون السادات بمراعاة اصول « العيش والملح » .. الذى لا يخونه - على حد تعبيرهم وتعبيرنا - إلا ابن الحرام .. اما السبب فهو جاسوس مصرى كان يعمل مع جهاز مخابراتهم .. الموساد .. والجاسوس خبير فى التدليك ، هو على العطفى .. وقبض عليه . وحوكم على ذمة القضية رقم « ٤ » لسنة ١٩٧٩ ، ودخل السجن لمدة ١٥ سنة .. وجاء فى حيثيات الحكم إنه ثبت للمحكمة بما لا يدع مجالاً للشك انه « ارتكب جريمة التخابر مع دولة اجنبية هى إسرائيل للقيام باعمال عدائية ضد جمهورية مصر العربية بان امدها بمعلومات لمعاونتها فى عملياتها الحربية للإضرار بالعمليات الحربية ، وكان من شان هذه المعلومات الإضرار بمركز مصر الحربى والسياسى والدبلوماسى والاقتصادى .

وكانت المحكمة قد حكمت عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة (٢٥ سنة) إلا أن السادات والضابط الأعلى المصدق على الحكم خفض

العقوبة إلى ١٥ سنة اشغالا شاقة فقط .. ولا شك ان السادات فعل ذلك استجابة لطلب منا حم بيجن (رئيس وزراء إسرائيل الاسبق) عندما التقيا بعد توقيع معاهدة « كامب ديفيد » .. وتشير بعض المصادر إلى ان بيجن طلب من السادات ما هو اكبر من ذلك .. الإفراج عن على العطفى .. ولكن السادات اكد له ان ذلك ليس ممكنا على الاقل فى الوقت الراهن .

واستعدت الصحف المصرية لنشر تفاصيل الجريمة .. ولكن بيجن طلب من السادات عدم النشر ، وقال .. « إن نشر تفاصيل هذه القضية سيؤثر على مسيرة السلام التى بدات بعد طول تعثر » .

وحدث اثناء مفاوضات ـ جرت لمدة نصف نهار ـ فى شرم الشيخ ، فى يونيو ١٩٨١ ، ان طلب بيجن من السادات إخلاء سبيل على العطفى ، واذاع راديو « لندن » الخبر ، ولكن الإفراج لم يتم .. وقتل السادات ، وظل الجاسوس فى ليمان « طرة » حتى مات فى عام ١٩٩٠ ، ولم يستجب حسنى مبارك إلى طلبات العفو الصحى التى تقدم بها على العطفى إلى رئاسة الجمهورية اكثر من مرة ، كان آخرها فى سنة ١٩٨٧ .. وقد استند فى طلباته إلى انه يعانى متاعب شديدة فى عينيه تهدده بالإصابة بالعمى .. وكان ذلك إلى حد ما صحيحاً .. لكن امراض العيون ليست من امراض العفو الصحى ، التى اهمها امراض القلب والسرطان .. ومن ثم فقد رفضت طلباته .

والمذهل ان على العطفى كان « المدلك » الخاص بالسادات وهو رئيس جمهورية ، والمدلك الخاص لاسرته ايضا ، ولاقرب

اصدقائه كذلك ، مثل عثمان احمد عثمان وكمال حسن على وشقيقه طلعت حسن على ، وسيد مرعى ، وعبد المحسن مرتجى .. وقد سئل على العطفى فيما بعد - اثناء التحقيق معه - عن الشخصيات التى تعرف عليها خلال فترة عمله وتجنيده كجاسوس ، فقال : « كنت اعرف معظم الشخصيات فى البلد من اول رئيس الجمهورية حتى اصغر فراش فى النادى الاهلى » .

والمذهل ايضا انه كان موضع ثقة الشخصيات المهمة التى كان يتعامل معها .. ولم يشك فيه احد ولو بصورة عابرة .. وكانت الابواب تفتح له بدون استئذان .. والسبب ان الاثرياء والوجهاء يجدون فى التدليك تجديداً لحيويتهم ، وفرصة للاسترخاء النفسى والعصبى الذى تسببه اصابع « المدلك » المغموسة فى الزيت والدهانات .. وهذه الحرفة تجلب عائدا مادياً لا يمكن تصوره .. حيث لا يبخل - من يسلم جسده عارياً لضربات يد « المدلك » المحسوبة - فى منح الهبات .. بخلاف المكاسب غير المباشرة التى يمكن الحصول عليها عندما يكون « الزبون » شخصية مهمة .. مثل رئيس او وزير .. وعندما قبض على « على العطفى » لم يصدق السادات انه جاسوس .. وقالت شخصية مهمة - كانت قريبة بحكم المصاهرة من السادات - « إننى يمكن ان اشك فى ابنى ولا اشك فى على العطفى » .

وعلى العطفى متزوج من امراة هولندية هى « انا ماريا جوهانس » ، كانت صديقة لزوجة عبده صالح الوحش الهولندية ايضاً .. وقد ذهب بنفسه إلى السفارة الإسرائيلية فى امستردام عارضاً عليهم

خدماته ، مقابل مساعدته فى الحصول على شهادة دكتوراة - ولو مزيفة - فى العلاج الطبيعى ، تتيح له فرصة الحصول على منصب عميد المعهد العالى للعلاج الطبيعى ، وهو منصب كان يفرض هذه الشهادة التى لم يكن على العطفى يحملها ، بالرغم من خبرته فى هذه الحرفة ، وبالرغم من انه كان مؤسساً للمعهد ومدرساً فيه .

وقد تردد انه قتل جمال عبد الناصر ، بسم خاص ، مزج به مراهم تدليك الصالح العسكرى ، التى كانت فى حاجة للعلاج الطبيعى ، بعد أن عاد من مصحة تسخا لطوبو فى الاتحاد السوفيتى .. وقيل إن إسرائيل كلفته بهذه المهمة .. وانه نجح فيها .. ولكن ذلك ليس صحيحا لسبب بسيط هو أن التجنيد على العطفى كان بعد وفاة جمال عبد الناصر حسب اوراق القضية .

وهناك دليل نفى آخر هو أن السادات لجأ إليه فى تدليك جسده .. وإن استعان - بعد القبض عليه - بشخص آخر ، اسمه زينهم ، اصبح المدلك الخاص .. وزينهم رياضى ممتلىء الجسد .. يرفع الأثقال .. ويلعب مسابقات العضلات وكمال الاجسام .. وقد قتل حتى اغتيال السادات يرافقه كظله .. وفى اليوم الاخير سبقه الى استراحة وادى الراحة .. حيث كان من المقرر ان يترك السادات منصة العرض العسكرى ليطير بالهيلكوبتر إلى سيناء ، لقضاء إجازة عيد الاضحى هناك .. ولكن .. غيرت رصاصات الاغتيال البرنامج .

اما القبض على الجاسوس ، على العطفى ، فقد انفردت بنشره فى كتابى ، عبدالناصر . اسرار المرض والاغتيال ، .. ولكن الجزء الذى

يهمنا فى هذه الرواية ، هو ان رجال الامن عندما راحوا يقبضون عليه ، ادعوا انهم صحفيون فى مجلة « اخر ساعة » ، وانهم يريدون إجراء حوار صحفى معه عن رحلته الاخيرة مع الفريق القومى إلى غانا .. وطلبوا منه ان يحبس الكلب المتوحش الذى يعيش معه فى بيته بالزمالك ، والذى يمكن ان يفترس ثلاثة رجال اشداء معا .. وكان يحتفظ به من باب الحماية الشخصية ولضمان الا يتسلل إلى شقته احد ، فيكشف المستور ..

وكانت ساعة الصفر تمام الساعة التاسعة مساء .. ووضعت شوارع « الزمالك » تحت السيطرة .. وحوصر البيت حصاراً قوياً .. واستقبل على العطفى قوة الضبط وطمان افرادها من ناحية الكلب .. « المربوط فى المطبخ » .. فدخلوا غرفة مكتبه .

وبعد ان كشفوا عن مهمتهم .. انكر الجاسوس .. فقلبوا حجرة المكتب راساً على عقب ، وفى ساعات احس الجاسوس بان الخناق يضيق عليه .. وخشى من الفضيحة .. ومن ثم راح يعترف .. ولكن .. قبل الاعتراف بقليل ، دخل ابنه ليجد الحجرة مقلوبة ، فسال والده :

ـ إيه ده .. يا .. بابى ؟

رد عليه :

ـ ابدا .. دول جماعة اصدابى .

فسأله باللغة الالمانية :

ـ هل اتصل بجمال السادات ليتصرف ؟

وقبل ان يجيب الاب ، قام احد رجال القوة ـ الذى تصادف انه يعرف اللغة الالمانية ـ بنزع اسلاك التليفون ، حتى لا يحدث اى تدخل يفسد القضية .

وبعد الاعتراف قام على العطفى ليحضر

أدوات التجسس .. وهى جهاز إرسال .. وكانت بوستال يستخدمه فى حمل شرائح الميكروفيلم ، وعدسة لتكبير شرائح الميكروفيلم .. وورقة « كربون » بيضاء من النوع المتطور ، يصعب تمييزه عن الورق العادى ، كتب عليها بالقلم الرصاص - صدق أو لا تصدق - « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى يستطيع ان يميزها .

وفيما بعد سُئل عن السر فى تدفق اعترافاته بهذا الشكل غير المتوقع مع انه كان يبدو رزيناً ، هادئاً ، متماسكاً فى البداية ، فقال :

« من قال إننى كنت متماسكاً .. انا كنت فى حالة ذهول جعلتنى ارفع عينى إلى السماء ، واطلب من الله الستر والمغفرة ، فقد كان فى نيتى ان اتوب بعد اسبوع واحد .. حيث قررت السفر إلى بيت الله الحرام لاداء العمرة ، وغسل ذنوبى بدموعى هناك ، ولكن مشيئة الله ابت إلا ان تجعل توبتى مستحيلة » .

وفوجئت زوجته بانه جاسوس .. وانهارت وهى تشير إلى المصاحف التى تملأ حجرة مكتبه ، وقالت :

... هل كان كاذباً إلى هذا الحد .. إلى حد ان يتجسس على بلده ويكرا القرآن ؟

وصودرت امواله وثروته التى قدرت قبل نحو ١٠ سنوات بحوالى ٢ مليون و٢٠٠ الف و٥٩٢ جنيهاً و٤٨١ مليماً .. وتم ذلك بحكم من محكمة القيم صادر فى ١٥ اكتوبر ١٩٨٠ .. ونُفذ الحكم « لصالح الشعب » فى اول مارس ١٩٨١ ، اى قبل اشهر من اغتيال السادات .

ولو كان اغتيال السادات تاخر بعض الوقت .. ربما كان قد افرج عن على العطفى ، وسمح له بالسفر إلى الخارج ، واستجاب لدعوة « العيش والملح » الذى تناوله مع

اليهود .. ولكن .. الرصاصات التى اطلقت عليه غيرت هذا الاحتمال .. لانها كانت تحمل اسباباً عديدة لاغتياله منها انه تعامل مع اليهود .. اعداء الله .. ولم ينقذه من الاغتيال إحساسه بالزهد ، والروحانية فى الوادى المقدس طوى .

ولا جدال فى انه حاول استعمال ورقة « التدين » منذ ان تولى السلطة ، فركز على اسمه الاول « محمد » انور السادات .. ووصف نفسه بالرئيس المؤمن .. واطلق على دولته .. دولة العلم والإيمان .. وبالرغم من انه ازال « زبيبة » الصلاة بعملية جراحية ، جعلته يخفى جبهته ببرنيطة لبعض الوقت فإنه تحالف مع الإخوان المسلمين ، والجماعات الإسلامية فى التخلص من الناصريين واليساريين .. وعندما انتهى شهر العسل ، استدار ليواجه القوة الجديدة المتنامية ، ولكن هذه القوة فى صراعها معه ، كسبت الجولة الاولى ، وكانت الجائزة « حياته » .

لقد ربى السادات شبلاً اسمه الجماعات الدينية ليلتهم خصومه .. وعندما اصبح الشبل اسداً التهم صاحبه .. إن ذلك حدث فى السيرك القومى .. وحدث فى سيرك الحياة السياسية .

فمن يلعب بورقة « الدين » كمن يلعب بالنار .. تحرقه كما يحرق بها الآخرين .. وعندما يُستخدم الدين فى الصراع السياسي يكسب الأشد تطرفاً .

وقد دفع السادات حياته ثمناً لتطرف هو الذى غرس بذوره ، وادمته اشواكه ، وقتلته انيابه واظافره .. فكان الجزاء من نفس العمل ..

لقد اغتال المتشددون الرئيس المؤمن .. ولم يصدقوا ركوعه ولا خشوعه ولا زهده ولا تعبده فى الصحراء .. وكان ما كان ■

عـادل حمـودة